

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ إبراهيم إبراهيم يوسف

تممة مانشر في العدد الماضي



وفي سنة ١٨٧٤ كتب نيتشه في مذكراته « إن ديني - إن كان لي شيء يصح تسميته بذلك - لا يتعدى العمل لنتجات العبقريّة . أما الفن فهو التريّة التي تحقّق ما نأمله في الحياة وبذلك تهون علينا الحياة بما فيها من ألم . » وذكر نيتشه في نهاية الجزء الرابع من كتابه « إنساني ، وإنساني إلى أبعد حد » في فصل « عن روح الفنان والأديب » كلاماً بلهجة اليأس ، إذ اعتبر الفن في تدهور وانحلال - ولعله كان يتحدث في ذلك عن نفسه بالذات . فقد حمل نيتشه على الفنانين الذين يحجمون عن النظر إلى المثل العليا ، ويكتفون بالنظر إلى أعمالهم فقط . ولهذا انقلب على الفنانين وراح يمجّد العلماء الذين يعملون للفكر ، فكل عالم أصبح في نظره « إنساني ، وإنساني إلى أبعد حد » . وهكذا بدأ يشيد بسقراط الذي كان قد نعمته من قبل « بقابل التراجيديا واتّخذة مثلاً أعلى له .

وعد نيتشه بعد كتابه الأخير من الحكماء البلغاء القابضين على ناصية المنطق والخيال والقول الحكيم . وكان في جده صارماً وفي لدعه قارصاً وفي مزجه ظريفاً . وهو إذا ما غضب بلغ حد الغضب ، وإذا ما عمد إلى اللعب نسي نفسه ، وإذا ما رقص تغافى في الرقص ، وكان الرقص أحب الأشياء إلى نفسه . وكان نيتشه يري في نفسه رأس حكماء الألمان ويعتقد بأن أسلوبه هو الأسلوب الخالد ، إذ في وسعه أن يكتب في عشرة جل مالا يكتبه غيره في كتاب كامل . وكان قد قرأ من الألمان ليشنبرج Lichtenberg و « هينه » Heine ، ومن الفرنسيين مونتاني Montaigne وفونتنل Fontenelle وشامفور Chamfort وغيرهم . وكان يجد للفرنسيين آراء صادقة لم تجتمع في كافة كتب الفلاسفة الألمان . وتخطى نيتشه في سنة ١٨٨١ تلك الأزمة التي عاجلته بعد كتاب « إنساني وإنساني إلى أبعد حد » وكتاب « آراء وحكم

مختلفة » Vermischte Meinungen und Sprueche وكتاب « الهائم وظله » Der Wanderer Und Sein Schatten ، وأحس بأنه قد استرد قواه الجسمانية والروحية بعد أن جال في التيول وفي جبال الألب وفي شمال إيطاليا . ورأى نيتشه أن الحياة فتحت له من جديد ، إذ أخذ يدرك الأشياء على حقيقتها بعد أن زال عنه الغشاء . وقد أدى به تجواله إلى هيامه بتلك البلاد الجنوبية هياماً صارع حبه لوطنه . ومن ثم أصبح شخصاً آخر لا يؤمن بوطن خاص ، وصار « أورياً » لا يفرق بين شمس أو وطن ، حتى لقد قال « لكي نكون ألمانيا صادقا ، يجب أن ننزع النمرة الألمانية من صميمك » . كذلك قال : « إن الألمان هم رجال الأس البعيد وسيصبحون رجال الغد البعيد ، أما أنهم رجال اليوم فلا ! » وما ذلك إلا لتعمدهم بترية العاطفة بدلاً من تعدهم تربية الفكر . وألمانيا في اعتبار نيتشه أخط مستوى من بقية دول أوروبا في الناحية الثقافية . ولم يشعر نيتشه بأنه ألماني إلا بالقدر الذي تسمح به طبيعته « الأوربية الصادقة » فهو ألماني كما هو بولوني أو إيطالي أو غيرها . ولعل حياته الأولى ومحيطه الذي عاش فيه ساعده على أن يكون ذلك الرجل وإذا كانت أعمال « أفلاطون » و « اسپينوزا » و « بسكال » و « روسو » و « جيته » قد أحدثت تطورات في الفكر البشري كما يقول نيتشه فإن كتاب « شفق الصباح » Morgenroete الذي أخرجه نيتشه عام ١٨٨٢ وجعل له عنواناً آخر هو « أفكار عن الأحكام الخلقية » أحدث هو الآخر تطورا في الفكر البشري . وفيه عالج المسائل الأخلاقية ، فنلا كتب عن الماديات المستجبة . وتساءل : ماهي المادة التقليدية ؟ فقال بأن المادة التقليدية هي الخضوع إلى ما يضاف الماديات الغريزية . وقال بأن على الناس أن يتعلموا من جديد ، وعليهم أن يرفضوا ما اتفق عليه العالم من عادات تقليدية ، إذ لا يوجد « عدل أبدي » ، ولهذا فهو نازع على كل اعتبار ، حتى على الاعتبارات الدينية المسيحية . وأعقب كتابه هذا بآخر عنوانه العلم الروح Froehlich Wis-senschaft وقد حاول فيه أن يحرر الإنسان من قيوده المكبل بها ، ويبيده عما لحق به ، كما يتمش فكره . ولم تمض أربع سنوات أخرى حتى أخرج كتاباً آخر عنوانه « لغة الزبح

الساخن « (الذى من شأنه أن يذيب الثلج) - Sprache Der Tauwinds . والكتب الثلاثة الأخيرة تم بعضها بعضاً . وفيها من غريب الآراء في الاخلاقيات مالا يصح تلخيصه في مثل هذه المجالة .

وعثر نيتشه في قراءاته على « زرادشت » فيلسوف الفرس الأقدم ومعلمها الأول والحكيم الخالد الذى عالج كل مسألة . فأتخذ من اسمه شخصية تملى على الناس آراءه الخاصة . فأصدر في فبراير سنة ١٨٨٣ الجزء الأول من كتاب « زرادشت » . ولم يكن نيتشه في حاجة إلى أكثر من عشرة أيام لوضعه ، فجاء في أسلوب من الشعر المنثور الذى لا يجارى . وكتب كتابه هذا أثناء تجواله في طريق « زاوجلى » الذى يطل على خليج « رابللو » بالقرب من « جنوه » هناك نزل على نيتشه وحى ذلك الكتاب الذى اختار له اسم « كتاب للجميع ولغير أحد » وجعل له عنواناً آخر « هكذا قال زرادشت » - Buch fuer Alle Vnd - Keinen , Also Sprach Zarathustra كذلك أتم الجزء الثانى والثالث منه في عشرة أيام آخر . فكتب الجزء الثانى في بلدة « سلز ماريا » بين أواخر يونية وأوائل يولية من عام ١٨٨٣ وأتم الجزء الثالث في يناير سنة ١٨٨٤ في مدينة « نيس » . أما الجزء الرابع الذى كتبه لأصدقائه فقط فقد اقتطع من وقته زمناً أطول . وكان نيتشه أثناء وضع هذا الكتاب على أتم ما يكون من عافية وصحة . وكان لا يسأم السير في الجبال التى كانت توحى إليه بكل ما يكتب كما أن البحر الممتد أمامه كان له أثر في ذلك الوحى . ولقد كتب « زرادشت » كما لو كان يرقص أو يلعب . فقد قال بلسانه « كان من السهل أن يرائى الناس رافصاً . وكنت لا أعرف للتعب معنى . فقد سرت في الجبال عدة أيام ، وفي كل يوم أسير سيع أو ثمانى ساعات متوالية ، وكنت أنام ملء جفنى ، وأضحك من كل قلبى . لقد كنت مستكمل كل معدات الحياة والفكر مسروراً . وكان هذا العهد يختلف عن تلك الأيام التى كتب فيها « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » اختلافاً كلياً وكما كان نيتشه شكوراً في كتابه الرجل الطيب Erco homo الذى أتى فيه بشئ من مذكراته لعام ١٨٨٨ .

ويعتبر كتاب « زرادشت » الذى وضعه نيتشه في رأى

بعض النقاد ومنهم بيتر جاست Peter Gast « من الكتب الواجب تقديسها » . وقال نيتشه نفسه فيه « إنه نوع أنيق من الدعاية للأخلاقيات . بل هو « شعور نبى » . وهذا الكتاب رقص وموسيقى ، هو ألحان جميلة وحكم غالية ، هو المصافاة والهدوء ، هو الروح الكامل والظرف والغضب ، وهو إلى جانب ذلك مرعب وغيف ، إذ فيه أسرار دفينه . » وإنه « كالناباة والليل والأشجار أى مجمع الظلام ، فن لا يخاف ظلمته سيجد فيه زهوراً ورياحين » هذه هي كلمات نيتشه في كتابه الذى كان يعجب به ويسميه « قرار المحيط » . وكتاب زرادشت هذا يمد بأجزائه الأربعة صباح وظهر وعصر ومساء اليوم الذى سيولد فيه الانسان الكامل Uedermensch أو السوبرمان Superman كما أسماه . وهذا الانسان الكامل قد تخيله نيتشه في كتابه « العلم المرح » . ولهذا الانسان وحده حق الحياة ومن أجله تحمل نيتشه مضض الحياة . أما الانسان الراقى Hoehere Mensch الذى تكلم عنه في كتابه « زرادشت » يختلف عن الانسان الكامل الذى جاء بوصف له في الجزء الرابع . ولاداعي للاسترسال فإن (الرسالة) ترجمته في التحدث عما يتضمنه كتاب « زرادشت » ، ونكتفى بما أشرنا إليه لتحدث عن أسلوب نيتشه في هذا الكتاب . فقد نهج فيه نهجاً فريداً . وكان نيتشه قد كتب إلى « روده » Rohde إمام اللغة في ذلك العصر يسأله إن كان هناك في اللغة الألمانية أسلوباً يضارع أسلوبه في زرادشت من حيث القوة ، وإن كان يعتقد بأن اللغة الألمانية بلغت أقصى شأوها على يدي جيته Goethe ولوتر Luther ؛ ويقول نيت « إن أسلوبى هو الرقص ، هو لعب متجانس في كل أشكاله كذلك هو القفز والاحتقار لكل تكرار » وبعد كتاب « زرادشت » أكثر كتبه انتشاراً وأبعدهم أثراً وغوراً ، وفيه تتجلى شخصيته وشاعريته . وهو يقول عنه : « إن هذا الكتاب أنشودة الليل - وفي الليل يجيش كل فؤارة بصوت أعلى . كذلك روى هي الأخرى فؤارة . » وقال نيتشه على لسان زرادشت متحدثاً إلى شخصه : « إننى جوال أتسلى الجبال » كذلك قال « إننى لأحب المنبسط من الأرض ، وقد تبينت أننى لا أستطيع الهجوع إلا يسيراً . ولا أنتظر من القدر إلا أن أبقى هكذا جواً أتسلى الجبال » وهذا الشعر الرمزى هو طابع كتاب « زرادشت العظيم » .

هو يقول : « إن الكائنات الحية تعمل قبل كل شيء لتظهر قوتها إذ الحياة هي قوة الارادة بلوغ الحكم » وهو يرى في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي لم يتم وضعه أن الارادة هي السيطرة على مشاعر الناس . وبذا تسيطر الارادة على الارادة للحياة . وفي الجزء الثاني من الكتاب فقد لكل القيم العليا : ففيه نقد للدين ونقد للأخلاقيات ومثلها العليا ونقد للفلسفة . أما الجزء الثالث فقد جعله كتاباً خاصاً بمبدأ تقرير القيم الجديدة . وقد اعتمد في وضع قيمة الجديدة هذه على الارادة التي اعتبرها أساس القوة وأساس السيطرة . ونظرت في الحياة هذه أصبحت عقيدة . فقال إن الارادة أساس الحكم في الطبيعة ، وهي أساس الحكم عند الفرد والجماعة ، وهي أساس الحكم في الفن . أما كتابه الرابع فقد أراد أن يكون تمهيداً لتطور وازدهار هذه الفكرة . وينتهي الكتاب بالقسم الأخير منه الذي اختار له « العودة الأبدية » عنواناً . ولكن لسوء الحظ لم يتم نيتشه كتابه هذا ، وكان الجميع يتوقعون أن يزدان به الأدب الألماني . ولم يكن هذا كل ما كان يريده نيتشه ، بل لقد وضع تصميم كتاب آخر عن « الوحدة والانكاف » في جزء خاص من كتاب « زرادشت » ولكن الأجل لم يحمله ؛ ولم يشر أعماله تنتشر وتروج . وكانت سنة ١٨٨٨ هي أكثر السنين التي أنتج فيها نيتشه مؤلفاته وقد لاحظ النقاد في بعض كتبه الأخيرة انطفاء جذوة فكره ، وبدت عليه أعراض الخبل ، وكان قد تملكه بعض الوقت . وقد جر عليه تطرفه - وليس في ذلك ما يبعيه - قسوة القدرة وإعراض الناس عنه ، في أواخر سنة ١٨٨٨ أصيب نيتشه بهزة عصبية شديدة ، وبدأ جسمه بعد ذلك في الانحلال . ولكنه بقي حتى أواخر أيام حياته طيب القلب ، شديد الصبر ، كثير الأدب ، مراعيًا إحساسات الناس كافة . وكان في سنة ١٨٨٨ قد خيل إليه أن لا بد له من أن يذلل أقصى مجهود فكري ، فجمع أشعاره التي أسماها « أغاني زرادشت » ، ومنها قصيدة « غروب الشمس » الخالدة . ومن من الناس لا يمجّد « زرادشت » أو « الانسان الكامل » حين يذكر اسم نيتشه ؟

وبقي نيتشه حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس

وليتشبه في هذا الكتاب شاعرية فذة ، فهو في بعض الأحيان ينجح من أن يكون شاعراً ، لأنه قد يكذب مع علمه بكذبه ، ومع رغبته في الكذب . ولهذا فهو يأبى أن يكون من طبقة الشعراء الذين لا ينظرون إلى أعماق الأشياء وأعماق الحياة . أما أنه كان ميالاً إلى التلاعب بالكلام والصور في شعره فذلك لا ينكره أحد . وكان نيتشه رومانتيكي النزعة الأدبية ، ولكنه كان يأبى أن يعرف عنه ذلك ، هذا إلى أنه كان عدواً لدوداً للأدب الرومانتيكي ، ومع ذلك فقد كان كلاسيكياً في تذوقه للأدب . وكان من أنصار الايضاح والتبسيط ، يكره التفاصيل كما يكره التعقيد والتشكك . وكان يتذوق أدب « يونج ستلنج » Yung Stilling وجيته Goethe وشفتغر Stifter وجتفريرد Kler Gottfried Keller وهم من غير نزعتهم . وكذا ظهرت هويته فيما لا يملكه .

وكان نيتشه يعمل في نفس الوقت الذي أخرج فيه كتاب « زرادشت » في تأليف كتاب آخر أظهره سنة ١٨٨٦ تحت عنوان « ما وراء الخير والشر » وهو مقدمة شبه مسرحية لفلسفة المستقبل ، وقال عنها نيتشه بأنها طريق محمد لأرض زرادشت الموحشة الخطرة . وهو يختلف مع كانت Kant في تفكيره إذ يتساءل : لم الاعتقاد في مثل هذه الأحكام عن الأخلاقيات؟ وفي رأيه أنه لا يوجد مظاهر أخلاقية ، ولكن توجد تعابير أخلاقية للمظاهر . وكما يوجد لطبقة السادة تعاليمهم الأخلاقية ، كذلك يوجد لطبقة العبيد تعاليمهم الأخلاقية الخاصة بهم . ولهذا فالخير والشر أشياء تتغير معانيها بتغير الزمان وتغير البيئة . ويرى نيتشه « أن التعاليم الأخلاقية لطبقة السادة كانت قد اختفت من أوروبا ألى سنة إلا أنها رجعت في عصره ، وكانت قد بلغت أوجها حينما وصل نابليون أسمى مجده . وفي رأى نيتشه أن الخير لا يوجد إلا عند الفقراء الذين لا قوت لهم ، وعند الضعفاء الذين لا حول لهم ، وعند المرضى والقيحاء وهؤلاء جميعاً هم المتدينون »

وكان نيتشه قبل إصداره كتابه الأخير على وشك إتمام نصف كتابه الأعظم « قوة الارادة بلوغ الحكم ومحاولة قلب القيم جميعها » Der Wille zur Macht, Versuch einer Umwertung aller Werte وما يقصد نيتشه من « قوة الارادة بلوغ الحكم » ؟